على هامش العرائس والشياطين

الطبيعة

فى الشعر العربى والشعر العالمى

للأستاذ سيد قطب

أثارت مجموعة « عرائس وشياطين » التى اختارها الأستاذ العقاد من الشعر العالمى ـ ومازالت تثير ـ فى نفسى موازنات شتى بين الشعر العربى والشعر العالمى فى الاتجاهات العامة والخصائص الذاتية ، وهذه الموازنات ـ كما قلت ـ ضرورية للجيل الجديد من الشعراء ، يرى على ضوئها كيف يحسن أن يكون اتجاهه فى الالتفات وطرائق التعبير ، لا على سبيل التقليد والمحاكاة ، ولكن على سبيل الاستفادة والتوجيه . ولهذا سأخرج فى مقال اليوم قليلاً عن (العرائس والشياطين) فيما اختاره من النماذج العربية والعالمية

* * *

يخيل إلى من مجموعة الشعر العربى أن (الطبيعة) لم تكن إلا قليلاً ـ متصلة بإحساس الشعراء العرب اتصال الصداقة والألفة ـ بله اتصال المجموعة الحية ـ فهى فى الغالب صلة عداء يمثلها قول الشاعر :

وركب كأن الريح تطلب عندهم
لها « يَرَةً » من جذبها بالعصائب

وإن كانت هذه الظاهرة العامة لا تنفى الأحاسيس المفردة لبعض الشعراء حينما تختلف البيئة كقول حمدونة الشاعرة الأندلسية :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ألذ من المدامة والنديم

وكأبيات المتنبى المعجمة فى وصف شعب بوان وفيها ذلك البيت الجميل

يقول بشعب بوّان حصانى أمن هذا يسار إلى الطعان ؟!

وظاهرة أخرى تغلب فى الشعر العربى ، وهى الإحساس بالطبيعة عند ألفتها كأنها منظر يوصف أو يلتذ ، لا شخوص تحيا ، وحياة تدب . والمواضع التى أحس فيها الشعراء العرب بالطبيعة هذا الإحساس الأخير تكاد تعد . فنحن إذا استثنينا ـ ابن الرومى ـ وكان بدعاً فى الشعر العربى كله ، لا نكاد نعثر إلا على أبيات ومقطعات يحس الشعراء فيها هذا الإحساس على تفاوت فى قيمتها الفنية . نذكر منها على سبيل المثال قول مسلم ابن الوليد :

تمشى الرياح به حسرى مولهة حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

وأبيات البحترى فى وصف الربيع التي مطلعها :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقول ابن خفاجة الأندلسى فى وصف جبل :

وأرعن طاح الذؤابة شامخ يطاول أعنان السماء بغارب
وقور على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالى ناظر فى العواقب
أصخت إليه وهو أخرس صامت فحدثنى ليل السرى بالعجائب

وفيما عدا ابن الرومى وتلك الأبيات والمقطعات التى ضربنا لها هذه الأمثلة تكاد الطبيعة فى الشعر العربى (تستعمل من الظاهر ا) ؛ فهى مناظر جامدة للوصف الحسى والتشبيه بالمحسوسات ، تعلو فى سلم الفن ، حتى تكون كأبيات المتنبى فى شعب بوان ، وتسفل حتى تصل إلى تشبيهات ابن المعتز جميعاً !

وظاهرة ثالثة : هى أن الطبيعة فى الشعر العربى قد تحيا وتدب ويحس الشاعر بما يضطرب فيها من حياة ، ويلحظ خلجاتها ويحصى نبضاتها ، كما يصنع ابن الرومى فى بدائعه . ولكنه هو لا يندمج فى هذه الطبيعة ، ولا يحس أنه شخص من شخوصها وفرد من أبنائها ، وأن حركته من حركاتها ، ونبضه من نبضاتها ، وأنه منها وإليها ، وأحاسيسه موصولة بأحاسيسها

فابن الرومى حين يقول :

لم يبق للأرض من سر تكاتمه إلا وقد أظهرته بعد إخفاء
أبدت طرائف وشى من أزاهرها حمراً وصفراً وكل نبت غبراء

أو حين يقول :

رياض تخايل الأرض فيها خيـــلاء الفتاة بالأبراد
منظر معجب تحيـة أنف ريحـه ريح طيب الأولاد

إنما يبلغ فى هذين المثالين وفى غيرهما أبدع ما يبلغه الشعر العربى من الإحساس بحياة الطبيعة ، ولـكنه يبقى فى منتصف الطريق بين هـذا المدى ، والمدى الذى يبلغه الشعر العالمى عند بعض الأمم فى الاتصال بالطبيعة اتصال الفرد بالأسرة والخلية بالجسم الحى ، والذرة الصغيرة بالـكيان الـكبير

فها هى ذى الشاعرة الإنجليزية المعاصرة « روث بتر » ، تقول فى مجموعة العرائس والشياطين ، للموت :

لا تناديني والصيف مشرق أيها الموت !
إنني فى الصيف لن أجيب النداء
حين يوسوس العشب ويتمايل بأعطافه
لا ترفع إلى صوتك بالنداء من تلك الظلال السفلى
« حين يحن الصفصاف ويترقرق الماء
حين يتوانى الجدول وينعس الهواء
حين يتموج اللبلاب على الأسوار
لا تنادنى . قلت لك لا تنادنى أيها الموت فى ذلك الأوان
إنك عبثاً تنادى وترفع الصوت بالنداء
فى إبان الأزاهير النامية لن أصغى إليك »

* * *

« لـكننى سأصغى إليك حين يتجرد كل حال وحالية
ومرحباً بدعائك حين ينتثر الورق من الشجر على ثراه
حين يسمع للسفوح فحيح فى العاصف المهتاج
حين يشم الرعاة من الشرق رائحة الثلوج
حين يهجر الحقل للريح تتولى حصاده
حين يصبح الإعصار حطاب الوادى الذى يطيح بأعواده
حين يصبح البَرَد بذرة الأرض التى تنثرها السماء
حين ننفر من كل شىء ولا نتوق إلى شىء
ناد يومئذ يا موت ولك الإصغاء والترحاب
فيومئذ أسمع وأنهض وأمضى ! »

وليس لدينا من الفراغ ما نقف به على مواضع الجمال الجزئية فى تصوير الطبيعة فى الصيف إبان الحياة ، وفى الشتاء إبان الموت ، ولا فى تصوير وسوسات الحياة ووساوس الموت هنا وهناك : « حين يوسوس العشب ويتمايل بأعطافه ، وحين يحن الصفصاف ويترقرق الماء . وحين يتوانى الجدول وينعس الهواء » ، أو : « حين يسمع للسفوح فحيح فى العاصف المهتاج . وحين يصبح الإعصار حطاب الوادى الذى يطيح بأعواده . وحين يهجر الحقل للريح تتولى حصاده » ... الخ . فهذه جزئيات قد تخطر للشعر العربى ، ولا سيما لابن الرومى

ولـكننا نتجاوز هذا إلى الظاهرة الـكبيرة الجامعة فى هذه المقطوعة . تلك هى شعور الفتاة بأنها لا تستطيع أن تموت والطبيعة فى فصل الحياة ، ولن تلبى الموت إذا دعاها ، لأن الطبيعة حولها حتى وهى خلية حية فى هـذه الطبيعة النامية . أما حين يدب الموت فى الأم الـكبيرة . فهنا يحس أبناؤها أن لا مانع من إجابة دعاء الموت ، وذلك « حين ننفر من كل شىء ولا نتوق لشىء » ، وحين يدب الموت من الداخل تسهل إجابة النداء من الخارج

وفى القطعة مجال لتصوير « المرأة » التى تحسب الموت طوع رغباتها ورغبات الحياة النابضة فى قلبها كأمها الطبيعة ، فهى تناديه أن ينصرف عنها الآن ، كما تنادى الخطيب والحبيب فى تمنع وإدلال ! ولـكننا معجلون عن الإفاضة فى هذا إلى إيضاح الظاهرة الـكبيرة الجامعة فى قطعة أخرى لفتاة جـديدة ! « للورنس هوب » الاسم الرمزى لشاعرة إنجليزية معاصرة أيضاً !

إن رفيق الحياة يدعوها . . . وإنها لترغب فى إجابة دعوة الحب والحياة . ولـكن الطبيعة حولها حزينة والليلة شاتية ، وإنها لتشعر أنها هى وهو وثمرة هـذه الاستجابة إنما هم جميعاً خلايا فى هذا الجسم الحى ، وأن هذا الحزن الذى يدب فى حنايا الطبيعة سيتسرب فى « الروح الهائمة على أعتاب الدنيا تستجدُّ فيها جثمانها » . فتنشأ الثمرة وفيها من هذا الحزن قطرات . فلتؤجل الدعوة إذن إلى حين تـكون الطبيعة كلها فى فرح صبوح :

« لا ... غير هذه الليلة !
إن المطر يقطر حزيناً وانياً ...

عبراتِ أمسى تحت سماء شجية
وعلى البعد « ابن آوى » هزيل خافت العواء
يزيد الفسق وحشة وعزلة

* * *

« النهر الدافق يتقدم إلى البحر بهمهمة الشكوى
والظلال تؤوى إليها الوساوسَ الخفية
وعيناى ترنوان نحو عينيك ابتغاء عزاء
فتلقاهما الأهداب مبللة بالدموع

* * *

« إن الروح الهائمة على أعتاب الدنيا تستجيدُ فيها جثمانها
إن دخلتْ من خلال قبلاتنا إلى حظيرة الحياة
ورثت كل ما فى قلوبنا من أمسى
وكلَّ ما فى المطر المنحدر من شجن مكظوم

* * *

« لا . حين تشتعي استجابة الحب الكبرى
أقبل إلىَّ والصباح يرتع فى الأنوار
والبلابل من حولنا مشوقة تصدح بالغناء
بين الورود من حمر وبيض

* * *

« وكذلك حين يقضى الله لى تلك الفريضة الحلوة القدسية
مذعنة لمشيئته الإلٰهية
كى أمنح الدنيا صورة من جمالك
لأسلمنها إذن إلى الدنيا ومعها فرحى فيك »

فهذه شاعرة وامرأة . يبدو فى مقطوعتها طريقة إحساسها بفرح الطبيعة وحزنها ، وتقبين الوشائج الحية بينها وبين هذه الأم الكبيرة ؛ وهذه هى الظاهرة التى تريد إبرازها . ولكن هذا لا ينسينا أن نقف مرتين أمام موضعين من مواضع الإبداع فى القصيدة :

الأول : طريقة الإحساس بحزن الطبيعة وفرحها : فالمطر « الذى يقطر حزيناً وانياً عبرات أمسى تحت سماء شجية » يجتمع إلى « ابن آوى هزيل خافت العواء على البعد » فيزيد الفسق وحشة وعزلة . و « النهر الدافق يتقدم إلى البحر بهمهمة الشكوى » يجتمع إلى « الظلال تؤوى إليها الوساوس الخفية » وكلاهما يجتمع إلى « عينيها ترنوان نحو عينيه ابتغاء عزاء فتلقاهما الأهداب مبللة بالدموع » . ثم فى الوجه الآخر : « الصباح يرتع فى الأنوار . والبلابل مشوقة تصدح بالغناء » وكلمة « مشوقة » خاصة فى هذا المكان إنها لوحة متناسقة الألوان أو سيمفونية متوافقة الألحان بين الطبيعة وأبنائها الجميع

والثانى : تلك الكناية الدقيقة البارعة عن « الروح الهائمة على أعتاب الدنيا تستجيدُ فيها جثمانها » وعن « استجابة الحب الكبرى » التى ترتفع بها وترتفع حتى تجعلها « الفريضة الحلوة القدسية التى يقضيها الله » . إنها كناية امرأة . وامرأة تحب . وامرأة شاعرة تجتمع كلها فى سياق !

* * *

وقد توجهنا حتى الآن فى الموازنة بين الشعر العربى والشعر العالمى إلى شعراء الغرب فى مجموعة « العرائس والشياطين » وبخاصة الشعراء الإنجليز ، فلنتوجه نحو الشرق أيضاً فى هذه الموازنة فى الشرق البعيد ، وفى مصر الفرعونية مثل نتقدم بها مطمئنين

يقول الشاعر الصينى « يوان مى » من شعراء القرن الثامن عشر الميلادى بعنوان « زهر الصفصاف » :

« أزهار الصفصاف كنديف الثلوج ... إلى أين ؟
أين تمضى جموعك الضالة مع الريح ؟

* * *

« قلما نبالى . وأقل من ذلك ما ندرى !
إنما سبيلنا من سبيل الهواء
حياتنا فى دوّاماته العاصفة
وموتنا فى الهاوية هناك »

فهذا إنسان يحس بنفسه وبالناس كزهرة أو أزهار للصفصاف . « سبيلهم جميعاً من سبيل الهواء . حياتهم فى دوّاماته العاصفة وموتهم فى الهاوية هناك » . فيزيد على إحساس الغربيين بالاندماج فى الطبيعة ، تلك الصوفية الغيبية ، طابع الشرق الجميل العميق البسيط الذى لا يكاد يبدو فى الشعر العربى

وفى المجموعة قطعة أخرى للشاعر نفسه فيها هذه الصوفية

الرقيقة ويجانبها إحساس المودة الصادقة بينه وبين الطبيعة التي تداعبه نسماتها وترسل عليه زخاماً من العطور وتبسم في وجهه وهو لا يدري من زخة العطور عليه عطر الورد من عطر البشنين :

« على ضفة الجدول الغربي
تطيف بي الأحلام في الغسق المزيق
وتداعبني نسمات الربيع
فترسل عليّ زخاماً من العطور
وتبسم في وجهي حين لا أدري
عطرَ الورد من عطرِ البشنين »

ونتجاوز مجموعة « العرائس والشياطين » لنقع على أغنية مصرية قديمة حيث : « تدعو شجرة الجميز فتاة إلى موعد حب تحت ظلالها ، واعدة أن تكون أمينة على أسرارهما » !

وفي الموضوع كما ترى تلك الصداقة الحلوة بين شجرة الجميز وبين الحبيبين ، حيث تشترك الطبيعة في مباركة الحب . فإذا أضفنا إلى ذلك أن شجرة الجميز كانت مقدسة عند المصريين لأن إلهة « الخصب » « حاتحور » كانت تسكنها وترسم مطلة بين فروعها ، زاد الموضوع قوة . فليست الطبيعة وحدها هي التي تبارك الحب بل الآلهة أيضاً ، وإلهة الخصب بنوع خاص !

وهذه المقطوعة مترجمة ترجمة حرفية ربما ذهبت بالكثير من جمالها ولكنها تفي بالغرض الموضوعي :

« غنت شجرة الجميز إلى فتاة جميلة
وكانت كلماتها تتساقط كقطرات الشهد
فأصبح الثمر الذي أحمله بلون الياقوت الأحمر
وكل ما في تعريشتي لأجلك

* * *

« إن أوراقي تزدان بلون خضرة البردي
وفرعي وجذعي لهما بريق عين الصقر
تعالي تحت ظلي الرطب
ليستريح حلم قلبك الذي به تحلمين

* * *

« سترسل سيدتي رسالة حب
إلى الشخص الذي سيكون سعيداً
قائلة : احضر إلى حديقتي قليلاً
واجلس معي في ظلي
سأجني لك الفاكهة لسرورك
وسأقطع الخبز وأصب النبيذ
سأقطف لك الأزهار النضرة

* * *

« في يوم هذا العيد السعيد
ستكون سيدتي وحدها مع حبيبها
آه . سأصمت عما أرى
ولا أتفوه بما سمعت ! »

* * *

إن إحياء الطبيعة والاندماج في حياتها ، كلاهما مرحلة بعد أخرى . وكلتاهما في حاجة إلى رصيد ضخم مذخور من الحيوية الباطنية . وقد كانت حيوية العرب حيوية حس تنفق أولاً بأول في الانفعال القريب والحركة المباشرة ، والعمل المنظور . فلم يبق في نفوسهم ذلك الرصيد المذخور في الباطن للتأملات والتصورات ، التي هي أعلى وأعز ما في الفنون . ولعل في هذا تعليلاً لعدم نمو القصة الفنية في الأدب العربي إلا على نحو قريب من الحكاية والخبر

والكلام في هذا الموضوع يطول . وليس هذا المقال موضعه على كل حال .

سيد قطب

ظهرت لأول مرة بمناسبة العيد الألفي للفيلسوف أبي العلاء المعري

رســـالة الهنـــاء

لأبي العلاء المعري

جزءان في سفر واحد

شرح وتحقيق الأستاذ الكبير

كامل كيلاني

الذي حبب الأدب العلائي إلى كل قارئ
كما حبب القـــراءة إلى كل ناشئ

الثمن ٣٥ قرشاً صاغاً ـ وللبريد ٦٣ مليما

يطلب من الناشر

دار الكتب الأهلية

بميدان الأوبرا ـ ت ٤٩٥٦١

وفي السودان من مكتبة
كردفان بالأبيض